العقلانية العلمية عند إمري لاكاتوش (المقالة الثانية عشر)

مقدمة:

إمرى لاكاتوش هو واحد من أكبر فلاسفة العلم في القرن العشرين الذين كان لهم أثرهم الفكري الواضح على حركة الفكر العلمي والفلسفي. وهو واحد من أقطاب الاتجاه العقلاني الجديد بطابعه العلمي وليس التقليدي شأنه في ذلك شأن أستاذه "كارل بوبر" ومعاصروه "توماس كون" "وجون واتكنز" و"باول فيرابند" وغيرهم.

ولد لاكاتوش في المجر، وعاش ما بين عامي [1922– 1974]. وبدأ حياته العلمية والفلسفية في انجلترا. وتأثر تأثراً واضحاً بالفلاسفة الإنجليز وعلى رأسهم "وليام ويل" ، خاصة في العلوم الاستقرائية ، وأخذ عنه بعض القيم والمفاهيم العلمية وفي مقدمتها مفهوم الصدق بوصفه تمثيلاً للواقع.

أما الأثر الأكبر في فكر وفلسفة لاكاتوش العلمية فكان على يد أستاذه "كارل بوبر" (1902– 1994)، الذي أخذ عنه لاكاتوش أن فلسفة العلم هي نظرية المنهج أو الميثودولوجيا وأن التكذيب الواعي أو المنهجي هو الخاصية المميزة للعلم من حيث إنه القوة المفسرة للتقدم العلمي المتوالي، كما تأثر به في نقده ودحضه لآراء الفلاسفة الوضعيين خاصة في استبعادهم التام لكل القضايا الميتافيزيقية باعتبارها لغو فارغ وخالية من المعنى والمضمون ويستحيل التحقق من صدقها أو كذبها..

جاءت فلسفة لاكاتوش محاربة للتفكير الخرافي الذي يعوق النمو المعرفي للعلم ويعوق التقدم العلمي للمجتمعات، كما جاءت موجهة للثقافة العلمية بما يتفق مع العقل والمنطق وروح العلم والتكنولوجيا المعاصرة، واعتبر لاكاتوش فلسفة العلم شكلاً من أشكال المنطق الذي يطبق التحليل النقدي الواعي على العلم، فلم تكن وظيفة هذه الفلسفة مجرد تقديم قواعد وطرق لحل المشاكل العلمية أو تقديم تبرير للمعرفة العلمية. إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكات لقبول النظريات والبرامج العلمية أو رفضها.

أي أن المهمة الرئيسية لفلسفة العلم عند لاكاتوش أنها تزودنا بنظريات منهجية أو ميثودولوجية معيارية تشكل إطاراً نظرياً في حدوده يستطيع المؤرخ للعلم إعادة بناء التاريخ الداخلي للعلم الذي هو تاريخ للعقلانية.

ولاكاتوش هو صاحب القول الشهير" فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفة عماء".

وهذا القول هو تعديل لقول الفيلسوف الألماني الكبير "إيمانويل كانط" "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء، وكأن وقائع تاريخ العلم محض تصورات عقلية فارغة فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدهما من دون الآخر. لأنهما معاً في فلسفة كانط يفضيان إلى إدراك الطبيعة أو عالم الظواهر وهما معاً عند لاكاتوش يفضيان إلى إدراك ظاهرة العلم.

وهنا تظهر الأهمية القصوى التي وضعها لاكاتوش لمؤرخ العلم لأن عليه تقع مهمة إعادة بناء تاريخ العلم وإضفاء الصورة العقلية والموضوعية عليها من خلال فلسفة العلم أو تظرياتها الميثودولوجية، ولهذا كان لاكاتوش يعتبر تاريخ العلم أول وأهم المراحل التي مرت بها فلسفة العلم حتى وصلت لهذه المرحلة المتقدمة.

العلاقة بين الفلسفة والعلم عند لاكاتوش

أكد لاكاتوش على وجود علاقة اندماجية وثيقة بين الفلسفة والعلم فكان يرى أنه بالرغم من استقلال كل من الفلسفة والعلم بذاته واختلافه عن الآخر سواء في الطبيعة والمنهج والموضوع والهدف. إلا أنه بعد التطورات العلمية الهائلة التي حدثت في القرن العشرين على وجه الخصوص أصبحت حاجة كل منهما إلى الآخر ملحة وضرورية، وأدرك كل جانب منهما حاجته للجانب الآخر، فعملت الفلسفة على إحداث نوع من الوفاق بين الأفكار والوقائع العينية للعالم الواقعي أي أرادت أن تحدد الواقعية الكاملة للوقائع والتي بدونها تغوص هذه الوقائع في التجريد، واصبح العلم يقوم بهذا التجريد ويقنع بفهم الواقعة على أساس من بعض جوانبها الأساسية، وهكذا امتزجت الفلسفة بالعلم والعلم بالفلسفة حتى أصبح الحديث في العلم لا يخلو من الأبعاد الفلسفية والحديث في الفلسفة يستند إلى براهين العلم وحقائقه وهو ما عبر عنه فيلسوف العلم الفرنسي " غاستون باشلار" [1884– 1962] قائلا: "إن فلسفة العالم قلما تكون بمثابة خلاصة أمينة لعلمه، وآية ذلك أن العالم حين يعمد إلى وضع مذهب فلسفي يجمع فيه نظراته العلمية فإنه قد يصوغ في فلسفته آراء علمية قديمة، كانت نقطة انطلاقه في شبابه، أو قد يقع تحت تأثير بعض الدوافع الأولى التي اقتادته إلى البحث العلمي"

ويسير هذا القول جنباً إلى جنب مع ما أكده لاكاتوش من أنه من الخطأ النظر إلى الفلسفة بمعزل عن العلم أو العكس، فالعلم كما يراه لاكاتوش هو ظاهرة حضارية متنامية تتأثر بحضارة وفلسفة العصر الذي تعيش فيه، كما يؤثر العلم في هذه الحضارة وهذه الفلسفة، فالعلم لم يعد مجرد تصنيف للوقائع والتعرف على ما بينها من تتابع والكشف عن دلالتها النسبية كما كان يزعم كارل بيرسون".

إن العلم عند لاكاتوش يعمل على أن يربط بين المعلومات ويحاول تفسيرها تفسيراً منهجياً عقلانياً منطقياً ، فالتفسير المنهجي هو السمة الكبرى للعلم في القرن العشرين، كما لم تعد الفلسفة مجرد تحليل منطقي لأشكال الفكر الإنساني كما زعم أنصار الوضعية المنطقية الذين أعطوا الفلسفة دوراً ثانوياً لا يتفق بأي حال من الأحوال مع سمو الفلسفة وإسهامها العظيم في بناء الحضارة الإنسانية، ولهذا نجد إمري لاكاتوش ينتقد بشدة فلسفة الفرد آير [1910– 1997] أحد رواد الوضعية المنطقية وينتقد موقفه من العلاقة بين العلم والفلسفة الذي يقوم على الفصل التام بين المجالين حتى أنه يقول "العلم ليس هو الفلسفة، والفلسفة ليست هي العلم. وبالرغم من أن للفلاسفة نظريات لكن هذه النظريات لا تمكنهم من خلق توقعات معينة يمكن إثباتها أو دحضها بطريقة تجريبية كما هي حال النظريات العلمية".

يرفض لاكاتوش هذا الفصل بين العلم والفلسفة لأنهما عنده في أصلهما نظر يقصد منه المعرفة للمعرفة، فإذا كان العلم يهدف إلى السيطرة على الطبيعة فهو يهدف أيضاً إلى الكشف عن الحقيقة، بل ويؤكد لاكاتوش أن التمايز بين المجالين يعد شرطاً أساسياً لقيام هذه العلاقة الاندماجية بين العلم والفلسفة بل هو جوهر هذه العلاقة من حيث هي علاقة تكامل وشراكة سواء على مستوى الهدف أو على مستوى الوظيفة. وهذا التكامل لا مفر منه ولا يمكن تصور غيابه حتى أثناء فترات القطيعة بينهما لأنه تكامل بين المادة والروح، بين العام والخاص، بين العقل والواقع.

المراحل التي مرت بها فلسفة العلم عند لاكاتوش

يرى لاكاتوش أن فلسفة العلم قد مرت بثلاث مراحل أساسية حتى نضجت واكتمل مفهومها وهي على النحو التالي:

أولاً: مرحلة تاريخ العلم:

فتاريخ العلم عند لاكاتوش وعند سائر فلاسفة العلم هو عرض للعلم في حالة نشأته وبدايته، ومراحل التطور والارتقاء والنمو التي مر بها أي علم من العلوم ، سواء من الناحية النظرية المنهجية أو من الناحية العملية التطبيقية، وتختلف وظيفة مؤرخ العلم عن وظيفة كل من العالم والفيلسوف، لأن وظيفة المؤرخ تكون أعم وأشمل بل ويمكن القول أن مؤرخ العلم يمكن أن يجمع بينهما معاً، لأنه يجمع بين الاهتمام بنتائج العلوم، والاهتمام بالمناهج التي تقوم عليها وتطبيقاتها، كما يهتم المؤرخ بالعلاقة الأبدية بين العقل والأشياء ولهذا اعتبر لاكاتوش تاريـخ العلم المحك والمعيار الدقيق لاختبار الميثودولوجيات المختلفة ونظريات فلسفة العلم فقال: "إن تقويم الميثودولوجيين المتنافسين والفصل بينهما يكون عن طريق تاريخ العلم الذي استطاعت الميثودولوجيا المعنية أن تخضعه لتأويلها العقلي".

وقد انكب لاكاتوش على تطبيق المحك التاريخي في نقده للميثودولوجيات الأربع الكبرى في القرن العشرين وهي الاصطلاحية التكذيبية المحافظة عند "كارل بوبر" [1902– 1994] والاصطلاحية "التبريرية"، عند "بيردوهيم "[1861– 1916] والاستقرائية والوضعية المنطقية. وانتهى لاكاتوش إلى أن نظريته أي "ميثودولوجيا برامج البحث العلمي التي نادى بها هي الأفضل والأدق لأنها تنجح في تفسير القطاع الأعظم من الوقائع والأحداث في إطار التاريخ الداخلي للعقلاني، فإذا كانت البوبرية التكذيبية تفوق الاستقرائية في هذا، فإن ميثودولوجيا برامج البحث العلمي تفوق البوبرية ولهذا كان يقول "تاريخ العلم كان ويجب أن يكون تاريخ برامج متنافسة للبحث أو إذا أردت "نماذج"، لكنه لم يكن ولا يجب أن يصبح تتابع فتراث من العلم السوي، وكلما بدأت المنافسة بسرعة كلما كان ذلك أفضل للتقدم"

إن معيار قبول أو رفض نظرية فلسفة العلم أو الميثودولوجيا عند لاكاتوش إنما يكمن في قدرتها على إرشاد مؤرخ العلم، والنظرية الأفضل هي التي تؤدي إلى إعادة بناء أشمل لعقلانية العلم أي لتاريخه الداخلي.

والتاريخ الداخلي للعلم عند لاكاتوش ليس هو الاكتشافات المزعومة لوقائع العقل أو ما يسمى بالتعميمات الاستقرائية كما يزعم الاستقرائيون، وليس هو بناء أنساق ترتيب وإحلالها كما زعم الاصطلاحيون، وليس هو أيضاً الحدوس الجسورة والتحسينات التي يقال عنها إنها زائدة المضمون ، أو هو تجارب سلبية حاسمة كما زعم بوبر "إن التاريخ الداخلي للعلم عند لاكاتوش هو التنافس النظري والإمبيريقي طويل المدى لبرامج البحث الرئيسية، وتغيرات المشكلة المتقدمة والمتفسخة".

والتاريخ الداخلي هو عادة ما يكون تاريخاً لأفكار وثيقة الصلة بالعلم تصغي إلى بواعث المشتغلين بالبحث وأنماط تبادل معلوماتهم وأساليبهم في تبني الأفكار، ويقوم هذا التاريخ على استبعاد كل ما هو ذاتي أو شخصي، فما اعتقد به الناس لا يؤخذ به. وإنما هو تجريد مما سبق قوله، إنه بالاختصار تاريخ العالم الثالث الذي يقول به بوبر: "عالم الكتب والمجلات والرسوم البيانية والجداول وذاكرة الحاسوب، أنه تاريخ برامج البحث المجهولة المصدر والمستقلة بذاتها، ولم يغفل لاكاتوش الدور الهام الذي يلعبه التاريخ الخارجي في إعادة بناء العقلانية وفي عملية نموه وتطوره، فالتاريخ الخارجي يبحث بصفة عامة في العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية التي لا تدخل مباشرة في محتوى العلم ولكن يعتقد أن لها تأثيراً أو أنها تفسر بعض الأحداث في تاريخ المعرفة

إن التاريخ الخارجي أو التاريخ السوسيوسيكلوجي للعلم رغم الدور الثانوي الذي يلعبه هذا التاريخ إلا أنه ضروري لكي تتكامل النظرة إلى العلم أو لبرامج البحث العلمي، فلا يجوز النظر للعلم أو لبرنامج البحث من جانب تاريخه الداخلي فقط ، فإذا كان التاريخ الداخلي يؤول أحداث التقدم العلمي ويفسرها، فإن التاريخ الخارجي يعطي تفسيراً ليس عقلانياً لتسارع أو تباطؤ هذه الأحداث أو حلولها في مكان معين أو حدوثها دون سواها، وأيضاً حين تختلف بعض فلسفته أو نظريته الميثودولوجية يمكن للتاريخ الخارجي أن يفسر هذا الاختلاف.

ويشير لاكاتوش لأهم المشكلات بالنسبة للتاريخ الخارجي، وهي مشكلة أن نعين الشروط السيكولوجية والاجتماعية الضرورية لجعل التقدم العلمي ممكناً، بيد أن في الصياغة الفعلية لهذه المشكلة "الخارجية" تتدخل نظرية ميثودولوجية ما ويوضح تعريف ما للعلم، إن تاريخ العلم إنما هو تاريخ لحوادث تختار وتفسر بطريقة معيارية.

ومما سبق يمكن القول بأن مهمة تاريخ العلم "الداخلي والخارجي" عند لاكاتوش هي أنه يساعد في إعادة بناء النظرية العقلانية العلمية وإذا فشل تاريخ العلم في تحقيق هذه المهمة فإننا سنكون أمام اختيارين لا ثالث لهما وهما:-

الأول: هو أن نتوقف عن محاولة إعطاء شرح عقلاني لنجاح العلم فالمنهج العلمي أو منطق الكشف ينظر إليه كنظام للتقييم العقلاني للنظريات العلمية ومعايير التقدم.

أما الثاني: فهو أن نحاول على الأقل أن نقلل من العنصر الاصطلاحي في التكذيب لننقذ المنهجية العلمية وفكرة التقدم العلمي وهذه هي طريقة بوبر وهي الطريقة التي يعول عليها لاكاتوش بل ويصرح أنه ينوي اتباعها.